

باروخ سبينوزا وسلطة السياق: "نحو فهم عقلاني للدين والسياسة"

Baruch Spinoza and the Authority of Context: "Toward a Rational Understanding of Religion and Politics"

شقراي صابرينة*

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم

كلية العلوم الاجتماعية – شعبة الفلسفة

chougranisab@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/07/06 تاريخ القبول: 2025/07/22 تاريخ النشر: 2025/07/31

ملخص:

يركّز هذا المقال على تحليل إشكالية العلاقة بين اللاهوت والسياسة في فكر باروخ سبينوزا، من خلال تتبع البنية التأويلية التي اعتمدها في "رسالة في اللاهوت والسياسة". ويُبرز أهمية "مفهوم السياق" كألية مركزية في قراءة النصوص المقدسة وتفكيك السلطة الدينية، إذ اعتبر سبينوزا أن الفهم السليم للكتاب لا يتم إلا من خلال وضعه ضمن ظروفه التاريخية واللغوية والثقافية. يُظهر المقال كيف استخدم سبينوزا هذا المنهج لتقويض التأويلات الدوغمائية التي توظف الدين في خدمة الاستبداد السياسي، مؤسسًا بذلك لمشروعية عقلانية تقوم على حرية الفكر وفصل الدين عن الدولة. من خلال هذا التحليل، يتضح أن السياق في فلسفة سبينوزا ليس مجرد أداة تفسيرية، بل استراتيجية فلسفية لتحرير الإنسان من سلطة التأويل المغلق، وتوجيه السياسة نحو مصلحة عامة عقلانية.

الكلمات المفتاحية: سبينوزا، السياق، التأويل، اللاهوت، السياسة، الاستبداد، الحرية، العقل، النص المقدس.

Abstract:

This article examines the relationship between theology and politics in the thought of Baruch Spinoza by focusing on his interpretive method in the Theological-Political Treatise. Central to the analysis is the concept of «context,» which Spinoza considers essential for understanding sacred texts within their historical, linguistic, and cultural settings. The article highlights how Spinoza used this contextual approach to challenge dogmatic interpretations that support religious-political tyranny, advocating instead for rational freedom and the separation of religion from state affairs. It demonstrates that, for Spinoza, context is not merely a hermeneutical tool, but a philosophical strategy aimed at liberating human thought and grounding politics in reason and public interest.

Keywords : Spinoza, context, hermeneutics, theology, politics, tyranny, freedom, reason, sacred text.

1. مقدمة:

تمثل إشكالية العلاقة بين الدين والسياسة موضوعاً مركزياً في الفلسفة السياسية والفكر الفلسفي الحديث، لا سيما في ضوء التحديات التي تطرحها السلطة الدينية على مفهوم الحرية والعقلانية في المجتمع المدني. ومن بين الفلاسفة الذين تناولوا هذه الإشكالية بعمق نقدي وتفصيل دقيق، يبرز باروخ سبينوزا، الذي قدّم في مؤلفه "رسالة في اللاهوت والسياسة" قراءة فلسفية متقدمة تسعى إلى إعادة صياغة مفهوم اللاهوت من منظور عقلاني وتاريخي، والتميز بين السلطتين الدينية والسياسية كشرط ضروري لضمان حرية الفكر واستقرار الدولة. يعتمد سبينوزا على مجموعة من المفاهيم الأساسية – كاللاهوت والعقل والسياسة والسلطة والحق والحرية – ليؤسس إطاراً فلسفياً نقدياً يرفض الدمج بين الدين والحكم، ويرى في العقل أداة التحرر الوحيدة من التسلط والاستبداد. يسعى هذا المقال إلى تحليل هذه المفاهيم في فلسفة سبينوزا، مع إبراز دور "السياق" التاريخي والاجتماعي في تفسير النصوص الدينية، وكشف كيف أن الفصل بين الدين والسياسة يمثل شرطاً موضوعياً لاستمرارية النظام السياسي الحر والعقلاني، مما يجعل فكر سبينوزا ذا أهمية متجددة في سياق النقاشات الفلسفية والسياسية المعاصرة.

1. الإطار التاريخي والفكري لفلسفة سبينوزا:

1.1 باروخ سبينوزا: فيلسوف العقلانية وحرية الفكر:

باروخ سبينوزا (1632-1677) فيلسوف هولندي من أصول يهودية برتغالية، "يُعد من أكثر المفكرين راديكالية في التاريخ الحديث، ومن أوائل من سعوا إلى تحرير الفلسفة من سلطة اللاهوت. نشأ داخل مجتمع يهودي محافظ في أمستردام، حيث تلقى تعليماً دينياً تقليدياً، غير أن ميوله النقدية وعلاقاته بمفكرين أحرار قادتة إلى صدام مباشر مع السلطة الدينية، انتهى بإقصائه وحرمانه الكلي من طائفته في عام 1656".¹

بعد الحَرَم، عاش سبينوزا في عزلة شبه كاملة، معتمداً على مهنة صقل العدسات في كسب قوته، ومنكباً في الوقت ذاته على صياغة مشروع فلسفي يتأسس على العقل الصارم والبرهان الهندسي. في مؤلفه الأبرز الأخلاق، حاول بناء نسق فلسفي يشرح الله، الطبيعة، والإنسان، خارج أطر الخرافة والوحي، مؤسساً بذلك لنزعة عقلانية تؤمن بوحدة الوجود وتنكر الغائية والمعجزات.²

¹ جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت، ط3، 2017، ص359.

² المرجع نفسه ص360.

"كما أُلّف الرسالة اللاهوتية-السياسية التي دافع فيها بشجاعة عن حرية التفكير وضرورة الفصل بين الدين والسياسة، مما جلب عليه غضب رجال الدين والسلطات السياسية في آنٍ واحد. ورغم الدعوات التي تلقاها لشغل مناصب أكاديمية، فضّل سبينوزا حياة التأمل المستقلة على الامتيازات الرسمية".³

توفي في لاهاي سنة 1677 عن عمر لم يتجاوز الرابعة والأربعين، بعد أن ترك أثرًا عميقًا في الفكر الحديث، بوصفه فيلسوف الحرية، ومؤسس النقد الديني، وأحد رواد الحداثة الفلسفية.

1.2 أعماله وأهميته الفلسفية:

يُعد باروخ سبينوزا من أبرز مفكري الفلسفة الغربية الحديثة. حيث ترك أثرًا عميقًا في ميادين الميتافيزيقا، الأخلاق، والسياسة. تمحورت رؤيته حول العقل كمصدر وحيد للحقيقة، رافضًا التفسيرات الغيبية والخرافية، ومؤسسًا لنظرية وحدة الوجود التي ساوت بين الله والطبيعة، ما شكل تحديًا جذريًا للفكر الديني السائد في عصره.

مارس سبينوزا تأويلًا نقديًا للنصوص الدينية، متبعًا منهجًا عقلانيًا صارمًا مستلهمًا من ديكارت، لكنه تجاوزه ليؤسس فلسفة مستقلة تعارض السلطة اللاهوتية. وقد جسّد ذلك في كتابه "الرسالة اللاهوتية-السياسية"، حيث دعا بوضوح إلى الفصل بين الدين والدولة، واعتبر أن الدولة العقلانية هي التي تضمن حرية الفكر وحقوق الأفراد، بعيدًا عن استغلال الدين في تبرير الاستبداد.

اتسمت فلسفة سبينوزا بالجرأة الفكرية والصرامة المنهجية، "وهو أول من طبق المنهج الهندسي في عرض الفلسفة، لا سيما في مؤلفه الأشهر الأخلاق، حيث صاغ رؤية كونية عقلانية تجعل من الإنسان جزءًا من نظام طبيعي يخضع لقوانين حتمية. هذا الطرح جعله هدفًا لهجوم رجال الدين وأثار حذر فلاسفة معاصرين مثل ليبنتز، الذي تجنب الإشارة العلنية إليه".⁴

في مقابل الفكر اللاهوتي التقليدي الذي يمثله فلاسفة كمالبرانش وباسكال، دعا سبينوزا إلى بناء نظام سياسي ديمقراطي يستند إلى العقل والمصلحة العامة. كان بذلك رائدًا في التأسيس لنظرية الدولة الحديثة، مؤثرًا في مفكرين لاحقين مثل هيغل وكانط وروسو.

³ جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، مرجع سبق ذكره، ص360.

⁴ إيتسام زروقي، السلطة الروحية والسلطة السياسية عند باروخ سبينوزا، مذكرة Master، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، إشراف رياض طاهير، 2019-2020، ص02.

رغم قصر عمره واضطهاده من جماعته الدينية، فإن سبينوزا بقي من أكثر الفلاسفة تأثيراً، إذ مثّلت فلسفته ثورة حقيقية في الفكر الديني والسياسي، وفتحت الباب أمام مفاهيم الحداثة، وحرية التعبير، والديمقراطية العقلانية.

2. السياقات الاجتماعية والسياسية والدينية التي نشأ فيها سبينوزا

2.1 السياق السياسي في هولندا في القرن السابع عشر:

شهدت هولندا في القرن السابع عشر تحولات جذرية جعلتها واحدة من أكثر البلدان الأوروبية تقدماً من الناحية السياسية، "حيث نجحت في انتزاع استقلالها من الحكم الإسباني بعد حرب الثمانين عاماً (1568-1648)، ما أدى إلى قيام "الجمهورية الهولندية". تميزت هذه الجمهورية بنظام سياسي لامركزي يسمح بقدر من التعددية، ما خلق بيئة مواتية لنمو الفكر النقدي والفلسفي.⁵

لكن هذا الانفتاح لم يكن مطلقاً، "فقد كانت هناك توترات شديدة بين التوجهات الجمهورية المدنية التي تدعو إلى حرية الفكر، والاتجاهات المحافظة الدينية التي سعت لفرض رؤيتها على المجتمع والسياسة. وقد أدرك سبينوزا مبكراً خطر هذا التداخل بين الدين والسياسة،⁶ مما دفعه إلى بلورة رؤية فلسفية تُعلي من شأن العقل وتدافع عن فصل الدين عن الدولة.

هذه التجربة السياسية دفعته إلى التفكير في طبيعة السلطة وشرعيتها، وخلص إلى أن الدولة العادلة هي التي تضمن حرية الفكر والمعتقد لجميع الأفراد، لا التي تفرض عقائد بعينها باسم الدين. وبهذا وضع أساساً فلسفياً لليبرالية الحديثة.

2.2 الوضع الاجتماعي في أمستردام وتنوعه الديني والثقافي:

تزامن استقلال هولندا مع ازدهار اقتصادي هائل بفضل التجارة الدولية، إذ أنشئت شركات ضخمة مثل شركة الهند الشرقية، ما جعل من أمستردام مركزاً عالمياً للتجارة والفكر. "هذا الازدهار جلب معه تعددًا ثقافيًا ودينيًا واسعاً، حيث استقطبت هولندا أقليات دينية هاربة من الاضطهاد في أماكن أخرى، بما في ذلك اليهود السفارديين من البرتغال وإسبانيا.⁷

⁵رحالة عباسية، الحرية والسلطة السياسية في فلسفة سبينوزا، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، اشراف ارزقي بن .
عومر، 2014-2015، ص 03.

⁶المذكرة نفسها، ص 03.

⁷سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، مراجعة: فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

نشأ سبينوزا في هذا الوسط المتنوع داخل طائفة يهودية صارمة، وقد تلقى تعليمه في مدارسها، لكن انفتاح المدينة سمح له بالاطلاع على أفكار فلسفية جديدة مثل أفكار ديكارت وبيكون، ما جعله ينظر بعيون نقدية إلى تعاليم دينه. ورغم أن المجتمع الهولندي عُرف بتسامحه النسبي، إلا أن هذا لم يمنع وجود قيود اجتماعية ودينية قاسية، خصوصًا داخل الجاليات المحافظة، وهو ما أدى إلى نبذه وطرده من طائفته. لكن هذا الطرد كان بداية تحرره الفكري، إذ استطاع أن يعيد التفكير في الدين والعقل والسلطة بشكل جذري، مستفيدًا من الوسط الثقافي النشط الذي وفّر له مساحة للنقاش والتأمل الفلسفي.

2.3 الصراعات الدينية وتأثيرها على فكر سبينوزا:

عاش سبينوزا في فترة من أعنف فترات التاريخ الأوروبي دينيًا، حيث استمرت الحروب والصراعات بين الكاثوليك والبروتستانت، التي مزقت المجتمعات الأوروبية، وهولندا كانت جزءًا من هذا المشهد. هذه الصراعات كشفت له الوجه العنيف للدين عندما يُستخدم كأداة للهيمنة السياسية.

من خلال دراسته للتراث الديني اليهودي والكتاب المقدس، "اكتشف كيف تحوّل الدين إلى وسيلة لتبرير الاستبداد، وهو ما أسماه بـ"أدلجة الدين"، أي استخدامه لخدمة مصالح الطبقات الحاكمة أو رجال الدين. فرأى أن الكهنة حولوا الدين إلى سلطة تقمع الحريات باسم المقدّس".⁸

وانطلاقًا من هذا النقد، طوّر سبينوزا فلسفة عقلانية ترفض الخضوع للنصوص الدينية إذا تعارضت مع العقل، واعتبر أن الإنسان لا يمكن أن يكون حرًا إلا إذا تحرر من الوهم الديني والسياسي، مؤكّدًا أن سيادة العقل هي السبيل إلى السلام والعدالة.

2.4 تأثير هذه السياقات على فلسفة سبينوزا:

كل ما مرّ به سبينوزا من صراعات سياسية، وتنوع اجتماعي، وقمع ديني، "ساهم في تشكيل فلسفة عقلانية مستقلة. اتخذ من العقل مرجعًا أعلى، ورفض التقسيم التقليدي بين الله والطبيعة، مؤسسًا لفكرة "وحدة الوجود"، حيث رأى أن الله ليس كائنًا مفارقًا بل هو الطبيعة ذاتها".⁹

بيروت، د.ط.(2008)، ص19، (مقدمة الكتاب)

⁸ بن الذيب الجموعي، شهيدة لعموري، الدين والدولة بين باروخ سبينوزا ومالك بن نبي- دراسة مقارنة. ضمن مجلة . الدراسات والبحوث الاجتماعية، المجلد 1 (العدد 03، 2023، ص95.

⁹ باروخ سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص09.

لقد تجاوز ديكارت في تطبيق المنهج العقلي على الدين، إذ رأى أن التفكير العقلاني يجب أن يشمل حتى العقائد الدينية، لا أن يُستثنى منها. وكان يرى في الديمقراطية النظام الأنسب لأنها تضمن حرية الفكر ولا تُخضع المواطن لإكراه ديني أو سياسي.

فكر سبينوزا يمثل إذًا محاولة لتأسيس فلسفة تكون بديلاً عن الصراعات العقائدية، وتجمع بين العلم والأخلاق، وتُعلي من شأن العقل والحرية.

2.5 السياقات الدينية لفلسفة سبينوزا:

1. موقفه من اليهودية:

سبينوزا، رغم نشأته اليهودية، سرعان ما بدأ يتبنى مواقف نقدية حادة تجاه الدين اليهودي، خاصة بسبب الطابع المغلق والمتحجر للسلطة الدينية في طائفته. رأى أن الكتب المقدسة تعرضت للتحريف، وأن رجال الدين اليهود شوّهوا رسالتها الأصلية لخدمة مصالحهم الخاصة.

"انتقد التفسير الحرفي للنصوص، ودعا إلى دراسة الكتاب المقدس دراسة تاريخية نقدية لفهم ظروف كتابته ومقاصده، بدلاً من اتخاذه كمرجعية مطلقة. ونتيجة لذلك، اتهم بالهرطقة وطُرد من طائفته، وتعرض للعنف والاضطهاد النفسي والاجتماعي."¹⁰

لكن هذا الطرد لم يكسره، بل عزز قناعته بأن الخلاص لا يكون بالدين التقليدي، وإنما بتحرير الإنسان من الخرافة والدفاع عن العقل. وبهذا أسس لنقد جذري للدين، لا باعتباره شرًا مطلقًا، بل باعتباره مؤسسة بشرية قابلة للنقد والتحليل.

2. موقفه من المسيحية:

بعد طرده من الطائفة اليهودية، اقترب سبينوزا من الفكر المسيحي، ودرس تعاليم المسيح مقارنة بموسى. رأى أن المسيح يمثل بُعدًا روحيًا عميقًا يتجاوز الشريعة والطقوس، ويهتم بالأخلاق الداخلية للإنسان، على عكس اليهودية التي تركز على الظاهر والمصلحة القومية.

لكنه، "رغم إعجابه بهذا البعد، رفض العقيدة المسيحية التقليدية، خاصة فكرة تجسيد الله في المسيح. فالمسيح عنده ليس ابن الله بمعناه اللاهوتي، بل حكيم يمثل الفكر الإلهي في أعلى تجلياته. ورغم ذلك، لم

¹⁰سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره، ص257.

يعتقد المسيحية، لأنه رأى أن الكنيسة أيضاً أصبحت خاضعة للمصالح والسلطة مثلها مثل المعابد اليهودية.¹¹

خلص سبينوزا إلى أن المشكلة ليست في الأديان ذاتها، بل في الطريقة التي يتم بها استغلالها وتحريفها من قبل المؤسسات الدينية، ولهذا نادى بفصل الدين عن الدولة، وبأن يكون الدين شأناً فردياً حرّاً لا يُفرض بالقوة.

3. المفاهيم الأساسية في فلسفة سبينوزا:

3.1 تعريفات وتحليل:

تُشكّل المفاهيم الأساسية في فلسفة سبينوزا - اللاهوت، العقل، السياسة، الحق، السلطة، والحرية - حجر الأساس لفهم رؤيته النقدية للعلاقة بين الدين والسياسة. إذ تتشابك هذه المفاهيم في إطار فلسفي متماسك يهدف إلى بناء مجتمع قائم على العقلانية والحرية بعيداً عن الاستبداد.

اللاهوت: في فكر سبينوزا، يُقصد باللاهوت ليس الدين التقليدي الذي يفرض إيماناً مطلقاً أو سلطات دينية، بل هو دراسة ماهية الله وطبيعته، وفهم النصوص الدينية في سياقها التاريخي والاجتماعي. سبينوزا يُعيد تعريف اللاهوت بعيداً عن الأساطير والخرافات، ويرى أن النصوص الدينية يجب تفسيرها بعقلانية، لا كحقائق مطلقة تستند إلى الوحي فقط. هذا النهج النقدي كان ثورياً في زمنه، إذ كان يدعو إلى فكّ الأسر النصي الديني من قبضة رجال الدين، ويمكّن الأفراد من فهم الدين كنتاج تاريخي واجتماعي، كما يحدث اليوم في الحركات الإصلاحية التي تطالب بتأويل النصوص الدينية بشكل عقلائي بعيداً عن التطرف.

العقل: العقل عند سبينوزا هو أداة الإنسان الوحيدة لفهم الحقيقة وتحديد المبادئ الأخلاقية والسياسية. هو القوة التي تحرر الإنسان من الجهل والخرافة، ويجعل منه كائناً قادراً على تحقيق الحرية الحقيقية. على مستوى السياسة، العقل هو المرجع الذي يجب أن يُبنى عليه النظام السياسي، لا السلطة الدينية أو التقاليد غير العقلانية. في العصر الحديث، يمكن مقارنة هذا بمبادئ الحكم الديمقراطي الذي يضع القانون والعقلانية فوق النفوذ الديني، مثل ما نراه في الدول العلمانية التي تضع الفصل بين المؤسسات الدينية والسياسية.

السياسة: السياسة في فلسفة سبينوزا هي فن إدارة الشؤون العامة، وهي المجال الذي يجب أن يُمارَس فيه الحكم وفق مبادئ العقل والحرية. السياسة، عنده، ليست مجرد تنظيم للسلطة، بل هي وسيلة لتحقيق

¹¹سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سابق، ص129

العدالة وضمان حقوق الأفراد في المجتمع. رفض سبينوزا النظام الثيوقراطي الذي يدمج الدين بالحكم، لأنه يؤدي إلى ظلم وانتهاك للحريات. تاريخيًا، يظهر هذا الرفض في نقده لأنظمة الكنيسة التي حكمت أوروبا في العصور الوسطى، ويدفع نحو بناء دولة حديثة تحترم حقوق المواطنة.

الحق: الحق عند سبينوزا ليس حقًا طبيعيًا ثابتًا على الدوام، بل هو مرتبط بالعقد الاجتماعي والعقلانية التي تضمن للناس الحرية والأمن. الحق يعبر عن ما يحق للفرد والمجتمع ضمن إطار يحفظ النظام والاستقرار. وهذا المفهوم يتقاطع مع الأفكار السياسية الحديثة التي ترى أن الحقوق السياسية والمدنية تُمنح وتُحمى بموجب القوانين التي تلتزم بمبادئ العدالة العقلانية.

السلطة: السلطة عند سبينوزا هي القدرة على فرض النظام والقانون، لكنها ليست مطلقة، بل يجب أن تخضع للعقل وأن تكون في خدمة الحرية والحق. السلطة الدينية التي تتداخل مع السياسية، حسبه، تشكل خطرًا على المجتمع لأنها تسيء استخدام السلطة لتحقيق أهداف ضيقة على حساب حرية الأفراد. لهذا، يدعو إلى سلطة مدنية عقلانية تفصل بين دور الدين ودور الحكم، وهو المبدأ الذي تتبناه الدول العلمانية الحديثة التي تحد من نفوذ المؤسسات الدينية في شؤون الحكم.

الحرية: الحرية عند سبينوزا هي القدرة على التصرف وفق العقل وفهم الضرورات الطبيعية والاجتماعية، وهي غاية السياسة الصحيحة. لا تعني الحرية التحرر من كل قيد، بل التحرر من العبودية الروحية والتسلط الديني والسياسي، أي التحرر من الاستبداد الفكري والسياسي. وهذا المفهوم يشبه فكرة الحرية المدنية الحديثة التي تركز على حرية التعبير والاعتقاد، والتي لا يمكن أن تتحقق إلا بفصل الدين عن الدولة.

3.2 "سبينوزا ونقد الثيوقراطية: ضرورة فصل الدين عن الدولة من أجل الحرية والاستقرار":

في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة"، يقدم باروخ سبينوزا نقدًا جريئًا وعميقًا لفكرة الحكم الإلهي (الثيوقراطية)، محذرًا من الخلط بين الدين والسياسة، ومبرزًا مخاطر تسلط رجال الدين على المجتمع والدولة. في هذا السياق، يرى أن تطور المجتمعات وتحقيق الحرية السياسية والفكرية مرهون بفصل السلطتين الدينية والسياسية، وتجريد اللاهوت من السلطة الزمنية.

1/ نقد الحكم الإلهي (الثيوقراطي)

يرى سبينوزا أن نظام الحكم الثيوقراطي، القائم على تفويض السلطة لله من خلال رجال الدين، لا يصلح في العصر الحديث. "إذ لا يمكن عقد 'حلف مع الله' كما حدث في التاريخ العبراني، بل إن الله - بحسب

الوحي – لم يعد يخص شعبًا معيّنًا، بل يخاطب الإنسانية جمعاء. فالنظام الديني المغلق، الذي لا يتصل بالعالم الخارجي، لم يعد ممكنًا في ظل التغيرات الاجتماعية والسياسية الحديثة¹².

ويشير إلى أن هذا الشكل من الحكم يؤدي إلى العزلة والانغلاق، ويُفضي في النهاية إلى الاستبداد، حيث يُستخدم الدين لتبرير السلطة المطلقة وضمان الطاعة دون نقاش.

2/ مخاطر الخلط بين الدين والدولة

يُبرز سبينوزا كيف أن تداخل السلطتين الدينية والسياسية يؤدي إلى انهيار الدين نفسه. فحين استولى رجال الدين على السلطة، ظهرت الخرافات، وفسدت الشريعة، وتحول الناس إلى مدهنين يسعون إلى إرضاء الكهنة لا إرضاء الله. هذا التداخل أنتج نظامًا سياسيًا قمعيًا، يمنح الشرعية لحكام مستبدين، ويبرر القوانين الظالمة باسم الدين، ما يعطل العدالة ويغذي التعصب.

3/ تسلط رجال الدين وإضعاف الدولة

يشير سبينوزا إلى أن "من يتحدثون باسم الدين (الأنبياء أو رجال الدين) كثيرًا ما قادوا المجتمعات نحو التطرف لا الإصلاح. فهم لم يتسامحوا حتى مع الملوك المتدينين إذا خالفوا الشريعة، ما تسبب في صراعات سياسية ودينية متواصلة".¹³ في المقابل، كان الملوك أكثر قدرة على استمالة الشعوب وتحقيق الاستقرار.

وينبّه إلى أن منح رجال الدين حق الحكم على الأفعال دينيًا وأخلاقيًا يؤدي إلى فساد الدين والدولة معًا، بل حتى الأنبياء أنفسهم لم يُعطوا هذا الحق دون نتائج سلبية، فكيف يُعطى لمن هم دونهم في الحكمة؟ لذا، يرى أن هذا الحق يجب أن يُمنح للعقل والفلسفة فقط، لا للسلطة.

4/ اللاهوت كسبب للصراعات والانقسامات

يتتبع سبينوزا في تحليله كيف أن تسييس اللاهوت أدى إلى اندلاع الحروب الأهلية والطائفية. ففي فترات حكم الشعب، كان هناك استقرار نسبي واحترام للشريعة، أما في فترات حكم الملوك – المدعومين دينيًا – فقد اشتعلت الحروب وساد الفساد. ويبرز كيف أن اللاهوت، عندما يُستخدم كأداة سياسية، يؤدي إلى انقسام المجتمعات وظهور أنبياء كذبة، يُبررون العنف باسم الدين.

¹²سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره. ص96(نقلا عن مقدمة الكتاب)

¹³سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره. ص96(نقلا عن مقدمة الكتاب)

4. مفهوم "السياق" عند سبينوزا

يُعدّ مفهوم السياق من الركائز الأساسية في المنهج الفلسفي والتأويلي لباروخ سبينوزا، خاصة في قراءته للنصوص الدينية. فهو لا يتعامل مع النصوص بوصفها وحدات لغوية مغلقة، بل يربطها بالظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التي وُلدت فيها. ووفقًا لهذا المنظور، لا يمكن فهم أي نص ديني أو فلسفي إلا بإدراك سياقه الخاص، أي مجموع العوامل التي شكّلت معناه ووظيفته.

يرى سبينوزا أن تفسير النصوص المقدسة خارج سياقاتها الزمنية والاجتماعية يؤدي إلى سوء الفهم، ويتيح للسلطات الدينية أن توظّف هذه النصوص في إنتاج خطاب سلطوي واستبدادي. ومن هذا المنطلق، يدعو إلى اعتماد منهج تاريخي نقدي يأخذ بعين الاعتبار:

_ هوية الكاتب وظروفه.

_ لغة النص وأساليبه البلاغية.

_ جمهور المتلقي واحتياجاته في زمن الكتابة.

_ القصد السياسي أو الديني الذي قد يكون موجّهًا في النص.

هذا التصور للسياق يعكس إيمان سبينوزا بأن النصوص الدينية ليست مطلقات أزلية، بل نتاج تفاعل بين الإنسان والعالم. ولذلك، فإن أي فهم عقلاني للدين لا بد أن يستند إلى تحليل سياقي عقلاني، يحزّر النصوص من سلطة التأويل الغيبي أو التوظيف السياسي المغلق.

وفي ضوء ذلك، لا تكون قراءة سبينوزا للسياق مجرد تقنية تحليلية، بل هي موقف فلسفي وأخلاقي يهدف إلى حماية حرية الإنسان الفكرية والدينية، ومنع تغوّل المؤسسات الدينية في الشأن السياسي.

1.4 . تطبيق مفهوم "السياق" في رسالة في اللاهوت والسياسة

في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة"، يقدّم سبينوزا نموذجًا صارمًا في التأويل السياقي للنصوص الدينية، منتقدًا القراءات اللاهوتية التقليدية التي تفصل بين النص والظروف التاريخية التي كُتبت فيها. وقد تجلّت رؤيته السياقية في عدّة مواضع، نذكر منها:

1/ قراءة النبوة كظاهرة بشرية مشروطة بالزمن:

يرى سبينوزا أن النبوة ليست اتصالاً مباشراً بين الله والإنسان خارج شروط الطبيعة، بل هي ظاهرة إنسانية تعتمد على الخيال وقوة التمثيل العقلي. ويشير إلى أن كل نبي كان يتحدث وفقاً للغة عصره، ومدارك قومه، ومحدودية معرفته. لذا، لا يمكن فهم خطابه إلا بالرجوع إلى السياق الثقافي والاجتماعي الذي ظهر فيه.

يقول سبينوزا: "الأنبياء لم يكونوا يملكون معرفة عقلية دقيقة، بل كانوا ينقلون تصوراتهم بحسب ما تتيحه لهم المخيلة¹⁴".

2/ نقد المعجزات انطلاقاً من الرؤية السياقية للطبيعة:

ينتقد سبينوزا التأويل الغيبي للمعجزات، معتبراً أنه يجب أن ننظر لقضية المعجزات من منظور عقلي ونقدي، حيث يسعى إلى إثبات أنها لا تتناقض مع قوانين الطبيعة، بل هي مجرد ظواهر طبيعية لم يدركها الناس في زمنها. يبدأ سبينوزا بطرح تساؤلات حول مفهوم المعجزة، مشيراً إلى أن الناس يعتبرون أي حدث غير مألوف أو غير مفهوم بمثابة معجزة، ويؤكد أن هذا الاعتقاد نابع من الجهل بقوانين الطبيعة. يقول في هذا الصدد:

"في الطبيعة لا يحدث شيء يمكن أن ينسب إلى فسادها، فليس فيها شيء يمكن أن يقال عنه إنه غير كامل أو معيب، إذ أن قوانين الطبيعة وقواعدها، التي تجري وفقها جميع الأشياء، هي دائماً واحدة وثابتة.¹⁵ ويرى أن ما بدا خارقاً في الماضي هو في حقيقته ناتج عن جهل الناس بقوانين الطبيعة. ويؤكد أن كل ما يحدث في العالم يتم وفق نظام سببي طبيعي لا يقبل التوقف أو الاستثناء. من هنا، فإن ما فُسِّرَ كـ "معجزة" يجب فهمه في سياقه المعرفي والزمني. يقول: "المعجزة لا تفيد إلا ضعف عقل المفسِّر وجهله، ولا تليق بالله الكامل أن يُنسب إليه كسر النظام الطبيعي.¹⁶"

3/ تأويل الأسفار المقدسة من خلال سياق التأليف

في فصول مطوّلة من الرسالة، يُصِرّ سبينوزا على ضرورة دراسة أسفار الكتاب المقدس بوصفها نصوصاً بشرية كُتبت على مراحل وبأقلام متعددة، كما أن هناك إشارات إلى أماكن وأحداث لم تكن معروفة في زمن موسى، مثل ما ورد في الأسفار الخمسة إلى موسى مستندا إلى تناقضات داخل النص نفسه. فهناك مقاطع تشير إلى أن كاتبها عاش بعد موسى بزمان طويل مثل: "ولم يعرف أحد قبره إلى هذا اليوم¹⁷" هذه العبارة

¹⁴سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، مصدر سبق ذكره. ص119.

¹⁵سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص189.

¹⁶المصدر نفسه، ص208.

¹⁷المصدر نفسه، ص261.

توضح أن الكاتب كان يعيش في زمن لم يكن فيه موقع قبر موسى معروفاً، مما يعني أن النص لم يكن مكتوباً في حياته، يلاحظ سبينوزا أن بعض الأحداث المذكورة تعود إلى أزمنة لاحقة، مثل الإشارة إلى ملوك إسرائيل، "وهو ما لم يكن له وجود في زمن موسى مما يؤكد أن النصوص خضعت لإضافات لاحقة.

كذلك، يتحدث النص عن موسى بضمير الغائب، كما في العدد (12:3): "وكان موسى رجلاً حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" 18؛ لو كان موسى هو الكاتب، لما كان ليصف نفسه بهذه الطريقة. هذه الصيغة تدل على أن النص كُتب بعده بفترة طويلة.

يرى سبينوزا أن التوراة لم تكتب دفعة واحدة، بل تم تجميعها عبر العصور، وأن هناك إضافات تدل على أن كاتبها عاش بعد موسى بمدة طويلة. يقول: "وهكذا يجب أن نذكر أيضاً أن بعض الأماكن لم تطلق عليها الأسماء التي عرفت بها في زمن موسى، بل أطلقت عليها أسماء عرفت بعده بوقت طويل." 19 ويؤكد على ضرورة تحليل:

_ هوية المؤلفين

_ اللغة الأصلية المستعملة

_ التحريفات التي طرأت عبر الزمن

_ الظروف السياسية التي أحاطت بالتدوين

وبذلك، تصبح النصوص المقدسة عند سبينوزا موضوعاً لفحص عقلاني وتاريخي، لا لتقديس غير نقدي.

4/ الربط بين النصوص الدينية وبنية الدولة القديمة

يرى أن العهد القديم ليس نصاً إلهياً نزل بوحى مباشر، بل هو مجموعة نصوص بشرية تم تجميعها عبر الزمن، مع فقدان أجزاء منها وإضافة أخرى وفقاً للاعتبارات الدينية والسياسية. ويرى أن من يريد إثبات قداستها عليه أن يثبت أصل كل كتاب على حدة وليس مجرد افتراض أن جميعها موحى بها لمجرد أنها جمعت في كتاب واحد: "ومن يريد التأكد من سلطة جميع هذه الأسفار، عليه أن يضع نفسه في هذا المجلس وأن يبدأ المداولات مطالباً بمعرفة أحقية كل منها بأن تكون له هذه السلطة" 20، يُظهر سبينوزا في تحليله لبني

¹⁸المصدر نفسه، ص 261 بالتصرف

¹⁹سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبق ذكره، ص 262.

²⁰المصدر نفسه، ص 314.

إسرائيل كيف أن الشريعة لم تكن مجرد أوامر دينية، بل كانت في جوهرها قانوناً سياسياً ينظم حياة الجماعة. فالدين في السياق القديم كان يخدم وحدة الدولة وسلطتها، لا تحرير الفرد. وهذا ما يدفعه للمطالبة بالفصل بين الدين والدولة في العصر الحديث، بعد أن تغير السياق التاريخي والبنية الاجتماعية.

5. خاتمة:

إن فكر باروخ سبينوزا يشكل حجر زاوية في دراسة العلاقة بين الدين والسياسة، حيث يقدم نقداً جريئاً للثيوقراطية ويدعو إلى فصل السلطين الدينية والمدنية كشرط أساسي لتحقيق الحرية الفكرية والاستقرار السياسي. إن منهجه التأويلي القائم على مفهوم السياق، الذي يعيد قراءة النصوص الدينية في ظل ظروفها التاريخية والاجتماعية، يمكن من تحرير الدين من التوظيف السياسي والاستبداد الديني، ويُعيد للدين دوره الأخلاقي والروحي الحقيقي.

يبقى فكر سبينوزا ذا راهنية كبيرة في ظل تحديات العولمة والتعددية الدينية التي تواجهها المجتمعات الحديثة، حيث تظل مسألة تنظيم العلاقة بين الدين والدولة أحد أبرز المحاور التي تحدد مستقبل الحريات وموثوقية المؤسسات.

ومن هنا، يطرح سؤال بحثي عميق يفتح آفاقاً معرفية مهمة: كيف يمكن توظيف المنهج السياقي السبينوزي في إعادة صياغة العلاقة بين الدين والدولة بما يتلاءم مع متطلبات العصر الحديث والتنوع الديني والثقافي؟

إن التفاعل مع هذا السؤال قد يمكن من تطوير فلسفة سياسية معاصرة تُعزز حقوق الإنسان، وتدعم التسامح والاستقرار، وتمنح العقل دوراً مركزياً في صياغة النظم الاجتماعية والسياسية، بما يحفظ الحرية ويحد من مظاهر الاستبداد تحت شعارات مقدسة.

وبذلك، يظل فكر سبينوزا مصدراً غنياً لا ينضب للبحث الفلسفي والسياسي، ومرجعاً ضرورياً لكل من يسعى إلى فهم آليات العلاقة بين الدين والسياسة في سياق البحث عن مجتمع أكثر عدلاً وحرية.

قائمة المصادر:

- 1- سبينوزا، رسالة في اللاهوت و السياسة، تر:حسن حنفي،مراجعة.فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، (د.ط)، 2008.

- 2- باروخ سبينوزا، علم الأخلاق تر جلال الدين سعيد، مراجعة جورج كتوره، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.

قائمة المراجع:

- 1- جورج طراييشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت، ط3، 2017.
- 2- فؤاد زكريا: سبينوزا، مؤسسة هنداي، القاهرة، د ط 1998.
- 3- على فهدى حشيم، الفلسفة والسلطة ومقالات أخرى، الدار الجماهيرية للتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1999.
- 3- منذر شباني، سبينوزا واللاهوت، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب. 2009.
- 4- محمد بن ابراهيم الحمد، كتاب مصطلحات في كتب العقائد، دار بن خزيمة للنشر، الطبعة الأولى.

قائمة المجلات والدوريات:

- 1- مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، المجلد (1) العدد 03، 2023.

قائمة المذكرات والرسائل الجامعية:

- 1- رحالة عباسية، الحرية والسلطة السياسية في فلسفة سبينوزا، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، اشرف ارزقي بن عومر، 2014-2015.
- 2- ابتسام زروقي، السلطة الروحية و السلطة السياسية عند باروخ سبينوزا، مذكرة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة 2019-2020، إشراف رياض طاهير.

